الفصل الخامس والعشرون

المدرسة

نريد قبل الخوض في موضوع المرأة وشئونها أن نذكر كلمة عن المدارس وأحوالها في بلادنا الشرقية؛ للدلالة علي أن حالتها لا تنطبق في شيء علي الحالة التي يجب أن تكون عليها.

ولسنا نتعرض في هذا الفصل للكلام عما يعلم ويدرس في تلك المدارس، فإن ذلك ليس من موضوعنا الآن. ولا نريد بالمدارس التي ننتقدها مدارس الحكومة ومدارس الأوروبيين الكبرى، فإنها كلها خارجة عن معنى كلامنا، وإنما نحن نريد المدارس الأهلية، والمكاتب الوطنية التي كثر في هذه الأيام عددها، والتي نحسبها روح الشعب ومادة حياته. فإذا فسدت هذه المادة فأية حياة تبقي للشعوب.

والمدارس تدعى في بلاد المدنية والحضارة بيوت العلم، والأدب. فما الظن بها إذا كانت منازل للجهل، والفساد؟ وأي ارتقاء وتقدم ينتظران للأمة التي تكون مدارسها الأهلية مسرحا للجهل، والخرافة، وقلة التربية، والأدب. وكيف تحسن حال شعب تكون مدارسه علي تلك الصفة؟

لعمري أن البلاد التي تمتلئ مدارسها –ولكن علي غير ما ينبغي– لهي كالبلاد التي تفرغ فيها المدارس، فتمتلئ السجون.

أجل إن السجون لا تفرغ في بلادنا، والنفوس لا تصبح سامية أبية، والأخلاق لا تثقف، والصناعة لا تزهر، والثروة لا تغزر، والوطنية لا تتأصل في

القلوب، حتى تمتلئ المدارس بالذكور والإناث من أبنائنا. ولكن علي الصورة التي يكون فيها العلم صحيحا، والتربية صالحة حقيقية، والآداب مرعية الجانب، محترمة المقام.

والمدرسة التي تجهل أيها الشرقي مقامها إنما هي منبع الحرية، ومنبثق أنوار النجاح، ومشرق بدور الإسعاد، ومطلع شموس الفلاح. وهي مرضع الأدب والعلم، ومشحذ الذكاء والفهم. بل هي أم تخلق فينا ما لا تمنحنها أمنا يوم الولادة من الأخلاق، وتقوم ما أعوج فينا في زمن الصغر من العادات والأطوار، وتعدنا لمستقبل يضمن لنا السعادة والرفاهية بما تبثه فينا من المعارف، وتلقنا من العلوم وتعلمنا إياه من الفنون والصنائع، وما تدربنا عليه من علم الواجبات والحقوق ومعرفتها فهي لذلك أجل ما ينبغي أن تنصرف عنايتنا إلى إتقانه وإصلاحه حتى يبلغ درجة التمام.

وقد ذكر الإفرنج المدرسة في كل قول قالوه، وكلام كتبوه. فذهبت أقوالهم مذهب المثل، وأصبحت العبارات في هذا المعني تؤثر عنهم، وتحفظ في بطون الأوراق، وعلي صفحات الكتب، ونحن ننقل عنهم بعض ما قالوه في هذا الصدد بيانا لشأن المدرسة، وإظهارا لرفعة مقامها.

قال مارتن لوتير: أن عدم الاهتمام وقلة العناية بمدارس الشعب اشتراك مع الشيطان في عمله. وقال فولتير: لا يؤذن لغير القضاة بتعيين الكتب التي ينبغي إدخالها إلى المدارس. وقال كيزو: يجب أن تكون المدرسة ملجأ المساواة؛ أي الإنصاف. وقال فاشيرو: لا يتعلم الولد الجري علي خطة العدل، والمساواة إلا في المدارس الأهلية العامة. وقال أيضا: أن المدرسة العمومية مهد للمدنية. وقال جوردان: أن فتح مدرسة اليوم هو إقفال سجن بعد عشرين عاما.

تلك نقطة من بحر مما قاله الإفرنج في وصف المدرسة، وتعريفها. وهم مع

ذلك يعدّون أنفسهم مقصرين في مديح المدرسة، وبيان خطارتها.

ونحن ما لنا والأقوال المأثورة ننقلها بين أسطر هذا الكتاب، في حين أن لدينا أمثالا حية، وشواهد حسية تتمثل لأعيننا في كل حين وآن.

انظر إلى اليونانية مع ما تعاقب عليها من استيلاء الأتراك، وضغطهم، وبقائها السنين الطويلة خاضعة لسلطتهم، بل مطأطئة رأسها تحت نير عبوديتهم ورقهم. ما الذي حفظها من الضياع وابقي كيان شعبها ثم أوجده علي نوع ما من العدم، فجدد هذا الشعب شبابه كالنسر؟. إنما حفظ اليونانية وأقامها من سقطتها، بل بعثها من لحدها أمر واحد: وهو المدرسة. فإنك لا تجد محلة حلها ولو ثلاثة بدالين من اليونانيين دون أن تجد فيها مدرسة لتعليم أبناء هؤلاء الثلاثة بلغتهم، وتربيتهم علي تقاليد شعبهم، ومذهبهم.

أما نحن، فإننا أن أقمنا مدرسة، وعمرنا للعلم بيتا، فإنما نفعل علي الغالب دون إدراك خطارة المهمة التي نحن قائمون بها. ونحسب أن المدرسة يكفيها لتكون مدرسة حقيقية أن يكون فيها كرسي للأستاذ، ومقاعد للتلامذة، وأن يلقي المعلم درسا فيتناوله الطالب كيفما كان. وقضي الأمر.

ولولا ذلك لما كنت إذا مررت بمكان فيه مدرسة من مدارسنا الأهلية ترى تلاميذ تلك المدرسة منتشرين في الطرق، والشوارع المجاورة للمدرسة، وتسمع كلمات البذاءة والسفاهة دائرة علي ألسنتهم، وتشهد من أعمالهم وحركاتهم كل ما يمجه الذوق السليم، وينفر منه الطبع، بل كل ما يخدش وجه الآداب العامة، ويدل علي فساد التربية، وقلة التهذيب.

وقد حدث لنا منذ مدة غير بعيدة أننا كنا نثني علي النهضة العلمية في البلاد المصرية، مظهرين سرورنا بذلك، معربين عن حسن أملنا بالمستقبل. وكان

أحد أصدقائنا الأوروبيين حاضرا فقال: إنكم تغالون في امتداح هذه النهضة، فإنها عندي سطحية محضة. فأحببنا أن نحجه ونثبت له أنه مخطئ في رأيه. فقال: موعدنا غدا في الساعة الواحدة بعد الظهر لأثبت لكم صحة زعمي.

وفي اليوم التالي وافيناه إلى الموعد، فسار بنا إلى مكان في أحد شوارع الجمرك. فقال: انظروا واسمعوا. فشهدنا والأسف ملء الفؤاد مشهدا لم نكن نتصوره قط. شهدنا في الشارع تلامذة مدرسة لم نعد نحفظ اسمها، وغاية ما نذكر عنها أنها تلقب نفسها بالضوء، أو النور، وما أشبه ذلك.

وكانوا منتشرين في عرض الشارع يلعبون لقضاء فترة الظهر المدرسية.

ولعمري أنك لو أتيت بأي إنسان من أية بلاد متوحشة، وأريته أولئك الغلمان، وأسمعته. ثم قلت له أنهم تلامذة مدرسة لقال لك علي الفور أنك كاذب فيما تقول، وأنهم أبناء الأزقة، لا أولاد المدرسة.

ولسنا نكتم عن القراء ولا نحاول الإنكار أن الناظر إلى حال أولئك الغلمان لا يلام إذا حكما عليهم ذلك الحكم، وقال فيهم مثل ذلك القول.

وعلي تلامذة هذه المدرسة ينبغي أن نقيس تلامذة مدارس كثيرة.

ولا مراء في أن الذين يقضون أيام صباهم في مدارس تكون علي مثل تلك المدرسة لا يشبون علي الخصال التي تؤهلهم لأن يكونوا رجالا كما يجب أن يكون الرجال، بل يكونون ممن يصدق فيهم قول الشاعر:

إني لأغمض عيني ثم افتحها علي كثير ولكن لا أري أحدا

وإذا قادك سوء حظك، ودخلت إلى داخل المدرسة، فإنك تجد هناك من دواعي الأسف والغم ما لا حاجة به إلى ظهير. فإنك تجد من قلة النظام، وعدم

الترتيب، ومن القذارة والفوضى في كل شيء ما تستحي معه من إطلاق اسم المدرسة علي ذلك المكان.

ولا يظن حضرات القراء أننا نغالي فيما نذكره عن أحوال بعض المدارس الصغيرة، فإنما نحن لم نذكر إلا طرفا مما يجب أن نذكره عنها؛ ولذلك نلتمس بكل قوتنا، ونرفع صوتنا الضعيف بالمطالبة بإصلاح هذه الحال؛ لأن "من الاشتراك مع الشيطان في عمله أن نهمل شأن المدارس الشعبية". ومما ينبغي توجيه العناية إليه أن المدارس يجب أن تكون في مكان واسع فسيح، وأن تكون صحية الوضع والبناء بحيث يتخللها الهواء النظيف، وتتعهدها حرارة الشمس. والأفضل لها أن تكون بعيدة عن محلات السكنى، منفردة في مكانها، وينبغي أن يفصل الكبار من تلامذتها عن صغارهم، وأن يحافظ فيها علي النظافة محافظة تامة.

أما التلامذة فينبغي قبل أن نلقنهم المعارف والعلوم أن نصلح آدابهم إصلاحا تاما، ونقوم ما أعوج من تربيتهم تقويما يجعل العلم الذي نلقنهم إياه نافعا مفيدا. حتى إذا رآهم وطني لا يملأ الأسف فؤاده، وإذا رآهم أجنبي لا يقول هازئا أنهم أبناء الأزقة لا أولاد المدرسة.

وإلا إذا استمرت الحالة علي ما هي عليه الآن من بقاء المدارس ضيقة قذرة، وإهمال العناية بآداب التلاميذ العامة، فلا هذه المدارس تفيد، ولا التعليم ينفع. بل يكون سرورنا بانتشار الرغبة في العلم والتربية سرور الساعة، فلا يلبث أن يحل محله الغم من فساد النتيجة، والحزن علي ضياع الجهد، وحبوط الأمل والرجاء.

ثم انظر إلى هذا الرجل الجالس في منبر التعليم. أفتعلم بعيشك من هو؟ نعم تعلم، إنه المعلم الذي يلقي الدرس، ويوضح ما أشكل منه علي التلاميذ،

ولكن ليست تلك وظيفته فقط. فإن هذا الجالس في منبر التعليم هو القابض أيضا علي زمام مستقبل هذا الغلام الصغير الذي يتلقى العلم عنه؛ أي علي زمام الهيئة الاجتماعية، وبالتالي علي العائلة بكليتها والوطن بإجماله. وكما يصنع هذا المعلم التلميذ هكذا يكون الرجل فيما بعد؛ لأن المعلم هو المربي، والمؤدب. وهو أب ثان للولد، بل هو ذو شأن أعظم من شأن الأب الحقيقي؛ لأنه يبث في الولد ما لا يبثه فيه أبوه من العواطف والشعائر، وينقش في فؤاده وذهنه ما لا ينقشه فيهما والده من الأخلاق، والعادات. ولله در القائل:

أقـدم أسـتاذي علـي فضـل والـدي وإن كان لي من والدي الفخر والشرف

فـذاك مـربي الـروح، والـروح جـوهر وهذا مربي الجسم، والجسم من خزف

ولذلك كان الأقدمون والمحدثون في كل بلاد توفر حظها من المدنية يجلون مقام المعلم، ويقدرونه حق قدره، ويرفعونهم منزلتة علي منزلة سواه، ويكثرون من احترامه. وكانوا يختارونه من أعلي طبقات أهل العلم والأدب، ولا يتخذون معلما إلا من كان ذا كمال في الأخلاق، وعفه في النفس، ونزاهة في الطبع؛ ليكون المعلم مثالا حيا للكمالات والفضائل تتمثل في شخصه لإعين التلاميذ الذين يقرأون عليه، ويأخذون عنه.

فلنحاسبن أنفسنا قليلا لنرى إذا كان المعلمون الذين نلقي إليهم هذه المهمة العظيمة –ونريد بها مهمة جعل الولد رجلا حقيقيا صالحا لخدمة نفسه، وعائلته، ووطنه خدمة صادقة– حائزين كلهم للصفات التي تؤهلهم لهذا المنصب الخطير، وتعدهم للقيام في منبر التعليم والتربية.

إننا إذا حاسبنا أنفسنا حسابا مدققا، وتخيرنا قول الصدق والحق دون تملق ولا تدليس وجدنا أكثر المعلمين عندنا إذا لم نقل كلهم، ولاسيما في المدارس

التي يتولون إدارتها، ويقومون بعمل التعليم، والتعلم، والتربية فيها. بل ترى كثيرين منهم كانوا السبب في فساد أخلاق التلاميذ، وضياع مستقبل الأولاد؛ لأنهم أنفسهم غير ذوي علم، ولا تربية، ولا أدب، ولا أخلاق.

ومن لم يكن حائزا صفات الكمال فكيف تطلب منه أن يمنحها غيره، والإناء لا ينضح إلا بما فيه؟

فليتنبه الشرقيون إلى هذه الحالة، وليعلموا أن تربية البيت لا تتم وتثمر الثمر الجيد إلا إذا جاءت تربية المدرسة علي الطريقة التي يجب أن تجيء عليها، وأن تربية المدرسة من أعظم المؤثرات في التربية الآتية: وهي تربية المدرسة الكبرى؛ أي مدرسة العالم، والاختبار. فقد قال الشاعر:

وأن مـــــن أدبتـــــه في الصـــــبا　　　كـــالعود يســـقى الميـــاه في غرســـه
حـــــتى تـــــراه ناضـــــرا مورقـــــا　　　بعـــد الـــذي عاينـــت مـــن يبســـه